(٢٩) صفات العالِم الرباني ٥

(الصبر على المباحات)

د. راغب:

هناك الكثير من الأمثلة عن صبر العلماء على المعاناة الطويلة، بل وصبر العلماء أحيانًا على ترك المباح للوصول إلى ما يريدون من تحقيق العلم، ما رأيكم في هذه القضية؟

د. صلاح:

لو أردنا أن نسقط على أرض الواقع، فأنا أدعو إخواني العلماء الذين تهيؤوا للعلم وشباب العلماء الّذين يريدون التهيؤ للعلم، إلى أن يصبروا ليس عن الحرام فقط، لأن الصبر عن المحرمات هو أمر أساسي ومفروغ منه، يقول الشافعي:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِي *** فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المعَاصِي

وَأَخْبَرَنِي بِأَنَّ العِلْمَ نُورٌ *** ونورُ اللهِ لا يُهدى لِعَاصِي

لكن الفتن الكثيرة الموجودة الآن في المباحات هي التي تُعطِّل ذوي الإرادات أن يكونوا من العلماء الربانيين.

فمثلًا الشاب الذي نشأ في بيئة يُفرِض الناس فيها أنه لكي يخوض تجربة الزواج فهو يحتاج إلى العديد من الحفلات ليتزوج ويكون بيته كاملًا وأمور تحتاج إلى أموال كثيرة، فإذا دخلنا في إطار من المباحات جعل كثيرًا من الشباب لديه ضغط داخلي بأنه يريد أن يتعفف ويتزوج لكن تجد لديه ضغط خارجي وعُرفٌ عام لا يسمح له أن يتزوج إلا أن يُهيئ كثير من الأشياء، وبالتالي يضطر أن يترك الكُتب والمكتبات ليذهب للعمل في الليل والنهار لكي يُحصِّل هذه الأشياء.

وهذا الهوى الداخلي الضاغط عليه بأن يحصل على ما يشتهيه من أطعمة وكساء ومنازل، فيتعجَّل الحصول على المال ليعيش كما يهوى.

وهنا نقول له أن هذه هي المرحلة الأولى فلا يجب أن تتعجل المال أو رغد العيش، بل عليك أن تُعجِّل القراءة بالليل والنهار وأن تبحث وتفكر وتتدبر وتبتكر وتخترع، وأنت في ريعان الشباب إذا دَرَجتَ على طلب العلم والصبر عليه سيظل ديدنك إلى أن تلقى الله، لكن في هذه المرحلة الأولى من حياتك إذا انسقت وراء كل الحلال فلن تجد وقتًا للعلم!

وأذكر مثالا على هذا، كان لدي أحد طلابي في كلية دار العلوم راسلني كثيرًا وأنا في أمريكا لكي يلتحق بي ويتعلَّم على يدي هناك حتى يكون من علماء الأمة، فأشفقت عليه وأرسلت له بأن يأتي وسيأخذ راتبًا يستطيع أن يعيش منه معيشة جيدة وهو أعزب بل ويدخر منه ادخارًا طيبًا، ثم جلسنا سويا لنضع خطة علمية له يسير عليها، لكنه بدأ يتهرب مني في المتابعة، وفوجئت بعد ذلك أنه يذهب ليعمل أعمال إضافية في أماكن أخرى لكي يحصل على مزيد من المال!

فواجهته وأخبرته أنني لا اتعامل مع أنصاف الجادين وطلبت منه أن يصارحني، هل يريد أن يتعلم أم يريد الحصول على مزيد من المال، فقال لي أنه يريد الكثير من المال ليحصل على منزل في مصر.، فقلت له أنه لم يصبر على هواه الداخلي وأن الكثير منا عاش حياة قاسية في بداية تعلمه وحتى عندما حصلنا على الأموال ف كان الهدف الأساسي منها هو أن نشتري الكتب ونظل مرابطين على القاعدة الفقهية: (من استعجل شيئًا قبل أوانه عوقب بحرمانه).

ونصحته بأن يستمر في العلم ويحصل على الدكتوراه وبعدها ظروفك المادية ستتحسن، لكنه لم يستمع إلي وتعجّل، وإلى الآن لم يحصل على الدكتوراه وتعب جدًا في حياته بعد ذلك.

د. راغب:

أذكر مثال من التاريخ لنأخذ العبرة منه،

كان أسد بن الفرات رحمه الله يعيش في تونس فتركها وترك أسرته وأهله للبحث عن العلم، وكان وقتها من العلماء الكبار في بلده، فعندما وجد من هو أعلم منه فذهب إليه إلى المدينة المنورة وكان الإمام مالك رحمه الله، فجالسه وتعلم على يده علمًا غزيرًا وبعد أن انهى علم الإمام مالك، عَلِمَ أن هناك الكثير من العلم في العراق عند أبي حنيفة ولكن أبا حنيفة كان قد توفيَ وتلامذته لا يزالون أحياء، وهما أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني.

ولأنه كان لديه الحرص على تحصيل العلم بالرغم من أن العلم الذي حصَّله قد لا يتحصّل عليه عامة اناس في زمانه، لكنه ذهب إلى العراق وذهب إلى مجالس محمد بن الحسن الشيباني رحمه الله، ويقول انه دخل المسجد ووجده ممتلئ عن آخره فأخذ يستمع وهو في آخر صفٍّ بمشقة وصعوبة، فأخذ يُبكِّر كل يوم حتى يتقدم في المسجد إلى أن وصل ذات يوم وجلس أمام الإمام محمد بن الحسن الشيباني، فقال له: (يا إمام أنا رجلٌ فقير قليل النفقة والسماع منك نذر، وبلادي بعيدة ونفقتي قليلة ما أستطيع المكوث فترة طويلة).

فقال الإمام محمد بن الحسن الشيباني كلمات في غاية الروعة، تربنا كيف يكون العالم متجردًا وكيف يُورِّث العلم للآخرين، وكيف أن الأسد بن فرات حريص على وصول العلم حتى ولو ترك الأهل، لكنه لديه هدف يريد أن يعود بناءً عليه لا يريد أن يتعلم ثم يترك الدنيا بما فيها ويترك المهمة التي جاء من أجلها.

فقال له الإمام: (قد جعلت النهار للعراقيين فاسمع معهم وجعلت الليل لك، فلتأتي لتبيت عندي في داري)

فيقول الأسد: (كنت أجلس مع العراقيين في الصباح وأذهب إليه في المساء بعد أن ينتهي من دروسه بعد العشاء، فأجلس معه في الطابق الأسفل من منزله فيعلمني ما شاء الله له أن يعلمني ثم يغلب علي النعاس فيصعد هو إلى الطابق الأعلى وينزل ومعه طبق من الماء، فكلما نعست رشَّ على وجهي الماء).

العالِم الكبير مستيقظ ويُعلِّم بل وفق كل ذلك يُقِظ طالبه ليأخذ منه العلم!

حتى أخذ عِلم محمد بن الحسن الذي هو علم أبي حنيفة، وبالتالي أصبح يجمع علم الإمام مالك والإمام بن أبي حنيفة ثم انتقل إلى مصر وتعلَّم على يد الإمام سحنون الذي هو من تلامذة الإمام مالك ثم عاد إلى تونس، وكان هو الذي نشر المذهب المالكي ليس فقط في تونس بل في الشمال الأفريقي كله ومن ثم في الأندلس بعد ذلك.

وهذا كله بسبب طالب علم نجيب ومُعلم متجرد، فهذه المنظومة هي التي أفرزت هذا العلم وانتشر العلم في عدة دول بفضل هذا الجهد.

وهذه أمثلة عن ناس لا رغبة لديها إلا في تحصيل العلم لله عزَّوجلَّ.

د. صلاح:

ولذلك عندما يكون المرء واضح وصادق مع الله سبحانه وتعالى يُوفِّق توفيقًا كبيرًا، وأيٍ من شباب العلماء النبغاء عندما يبدأ في العلم ستأتيه فتنتان، فتنة الإغواء وفتنة الإيذاء، والصبر هنا يجب أن يكون مزدوجًا ويكون صبرًا جميلًا: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا} [المعارج: ٥]

وفي فتنة الإغواء ستجد أعمال كثير جدًا حتى تُشغِلُكَ عن طلب العلم، وقد (يتحصرم قبل أن يتذبب)، لكن إن كانت لديه الرؤيا واضحة بأن يكون عالِمًا ربانيًا فيبحث هنا عمن يخدمه في هذه المسألة، فإن تزوَّج يتزوَّج التي تعينه وتساعده على استمرار طلب العلم.

لكن الشباب تُعرض عليهم هذه الفتن التي تكون من المباح والحلال لكنها أخطر من فتنة الحرام والشبهات، لأن الأخيرة قد تدفعها أقل درجة من الإيمان في قلب الإنسان بالتقوى.

د. راغب:

كيف نوفّق هذا القول مع قول الله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف: ٣٢]؟

د. صلاح:

{إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} [البقرة: ٢٤٩]

وإذا أردت أن يكون معك رواحل فلا بد أن يتجاوزوا مرحلة الصبر عن الحرام إلى الصبر عن المباح.

هذه الأمة منكوبة بشكل غير عادي، وهي كالأيتام في مأدبة اللئام، واليتيم الذي مات أبوه وهو طفل صغير تنبت فيه الرجولة مبكرًا ويشعر بالمسؤولية عن أهله، فتجده يذاكر في الليل ويعمل في النهار ويراعي ويدير البيت لأنه يتيم ذا مروءة.

وأنا أريد من إخواننا الذين يريدون أن يتأهلوا ليكونوا علماء ربانيين، أنهم يكونوا على علم بدورهم في الحياة وأنهم: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [آل عمران: ١١٠]

وأن هدفهم هو إسعاد العالم وتغيير العالَم والأمة، وان تكون لديهم هذه الرؤية.

إن الإمام يحيى عندما كان يدرس عند الإمام مالك، وهو جالس في المسجد ودخل الفيل إلى المدينة، وبالرغم من أن النظر إلى الفيل من الحلال، فكل طلاب العلم الذين كانوا أمام الإمام مالك خرجوا، إلا الإمام يحيى الذي ظل جالسًا، فالإمام مالك قال له: ما منعك أن تخرج لترى الفيل كما خرج طلاب العلم؟ فقال: ما جئت من أجل الفيل يا إمام.

وإكرامًا له ظل الإمام مالك يُحدِّث ولم يتوقّف، ورواية هذا الإمام العظيم هي الرواية الوحيدة الكاملة التي بها ثمانية أحاديث ولا توجد في روايات الآخرين لأنهم لما خرجوا ليروا الفيل لم يستمعوا إليها.

فخصَّه الإمام مالك بهذه الروايات لأنه تَرَكَ من المباح ما جَعله أهلًا ليأخذ ما لم يأخذه غيره.

فيترك طالب العلم المباح، من النوم فيصير النوم غمضًا ويصير الطعام قوتًا ويصير الكلام ندرًا، فيقلل من الكلام لحساب طلب العلم والذّكر والقرآن، فإن ترك نفسه يأكل ما يريد فينتهي به الأمر إلى النوم.

د. راغب:

كان ابن عقيل يفضل الأكل المسفوف أي الخبز المفتت عن الخبز السليم، حتى ينتهي من الأكل سريعًا، فكان يأخذ دقيقتين بدلًا من خمس!

وقد يقول البض أن هذه مبالغة! لكن نجاوبهم بأن ابن عقيل كتب كتاب الفنون في ٨٠٠ مجلد وهو أكبر موسوعة ألفها إنسان في تاريخ البشرية كلها.

وهناك موسوعات أكبر ألفتها مؤسسات أي أكثر من عالم يشتركون لكن أن يؤلف مؤلف واحد فقط ٨٠٠ مجلد من موسوعة الفنون وذلك في كل الفنون من اللغة والفقه والشريعة والأدب والشعر وغيرها، فجمع كل هذه الفنون في كتاب.

وهذا لأنه كان على هذه الصورة.

عندما كان يدخل بيته وهو يقرأ فيتركه أهله لأنه في محراب حقيقي ويقرأ، فإذا جاء وقت الطعام يأتي ابنه أو ابنته ليمسكون عنه الكتاب حتى يأكل ويقرأ في نفس الوقت!

قد يرى البعض أن هذا تضييقًا لأبواب واسعة، لكن هذا ليس إنسان عادي، هذا عالِم والعالِم يقود الأمة وما يُباح لعموم الأمة يَصعب على العالِم وإلا ضاعت الأمة.

وإذا كنا نحن المسلمين لدينا أهداف كبرى كثيرة وأخروية لهذه الأعمال، فحتى غير المسلمين الذين لا يرتبطون بمثل هذه الأهداف ويريدون ان يكونوا من العلماء يبذلوا مثل هذا الجهد بل وأشد في كثير من الأحيان، وأضرب مثالين سريعين:

أديسون الذي اخترع المصباح الكهربائي يقول أنه حاول مائة محاولة وفي المحاولة المائة وواحد نجح في صناعة المصباح الكهربائي، وكان في كل محاولة يبذل الجهد والتجارب، لكن من كانوا يعملون معه أُحبِطوا بعد العديد من المحاولات لكن وجدوه سعيدًا ومستمر في العمل، فقالوا له ألم ليعمل فيقولون له ألم تشعر بالإحباط واليأس! فقال أنه عَلم أن هذه الوسيلة أو المحاولة لا يعمل معها المصباح الكهربائي وهذا يُعد نجاحًا ولا بد من وسيلة يعمل معها إلى أن وصل للوسيلة المائة وواحد!

ولويس باستير مكتشف الجراثيم في ليلة عرسه نسي الموعد وبالتالي تأخر عليهم فبحثوا عنه إلى أن وجدوه في المعمل يعمل على تجاربه!

فهؤلاء البشر لديهم قضية علمية وكل العلماء الذين برعوا وأنتجوا سواء من المسلمين أو غير المسلمين القدامى أو المحدثين، والتاريخ والواقع يحمل أن من يريد ان يصل إلى العلم لا بد له من الصبر حتى الصبر عن المباح.

د. صلاح:

أوصي شباب العلماء بشكل خاص ألا يستعجل رغد العيش، لأنه حتى ولو كنت ميسورًا فأخذت من كل المباح فسيعطلك هذا قطعًا أن تصل إلى الصمود العلمي الّذي يوصلك إلى الرسوخ في العلم، كما قال ربنا سيحانه وتعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧].

نحن في عصر نريد فيه عالمًا موسوعيًّا لديه أفق واسع جدًّا أن يقرأ في كثير الفنون والعلوم حتى يتأهل أن يكون لديه فقه في مادة التخصص وفقه الواقع الذي يعيشه، وكيف ينقذ أمته في تخصصه سواء كان تخصصه شرعيًا أو من تخصصات علوم الحياة وكيف يرتقي بها ارتقاءً يصل بها إلى مصافي الأمة الرائدة وليست الأمة الراكدة .

د. راغب:

وكما قال يحيى بن أبي كثير: "لا يستطاع العلم براحة الجسم".